الخطاب النقدي و أبعاده الابستيمولوجيا في الفكر النقدي المغاربي المعاصر
(نظرية الحجاج أنموذجا)
د. عماري مالك. ملحقة قصر الشلالة، جامعة ابن خلدون.

1- مقدمة:

تعدّ إشكالية الضبط المصطلحي والمعرفي لنظرية الحجاج في مجال النقد الأدبي المغاربي من بين أكثر القضايا النقدية تعقيدا، من حيث عملية الفهم والتلقي، وهذا يرجع إلى اختلاف وجهات النظر العلمية الدقيقة، التي تنبني في معظمها على الخلفية المنبثقة عن خصوصية الحقول المعرفية، التي تنجذب نحو الممارسة الفعلية لعملية إنتاج المعرفة وفق المحيط الثقافي. فلا يمكن للناقد الأدبي تفادي مواجهة هذه الإشكالية، ولا أن يمتلك أسباب تجنّب التساؤل الذي يراوده عن ظاهرة اختلاف التفكير المنهجي النقدي المغاربي في جوانب تبني نظرية الحجاج، من حيث القواعد والأسس التي ترسى عليها من جهة، ومن حيثتصوّر بعض مصطلحاتها، كمصطلح الحجاج، والإقناع على سبيل التمثيل لا الحصر.

وانطلاقا من هذه الحقيقة فإنّ النزوع النقدي المغاربي المعاصر، يأخذ وجهات نظر مختلفة تنبني في جوهرها على صرامة التفكير المنهجي النقدي في متابعة التحديث النقدي الغربي من جهة، والتباين في الطرح التنظيري من حيث الفهم والتلقي وضبط المصطلحات من جهة أخرى، لكون المفاهيم المقدّمة تصاحب في أغلب أحوالها تجارب التفاعل الإنساني، القائم على ثقافة الممارسة الفعلية لعملية إنتاج المعرفة وفق المحيط الثقافي ذي الخلفية الفلسفية أو الجمالية أو اللسانية، وهذا ما يؤكد الاختلاف في توجهات تبني النظرية، فنجد البعض يتبنى نظرية الحجاج في اللغة، التي وضع أسسها اللغوي الفرنسي أوزفالد ديكرو

(o. ducrot) والبعض في البلاغة التي أرسى قواعدها بيرلمان (perlemen)، وآخرون في الفلسفة والمنطق مع تولمن (tolmen).

هذا ما يفسّر كون النزوع النقدي المغاربي المعاصر دائم اختلاف وجهات النظر في تبني نظرية الحجاج، لكن ما يدفعنا للتساؤل هو: أين مكمن اختلاف المفاهيم؟ وهل يوجد أصل لذلك؟ ولماذا هذا الاختلاف من حيث الفهم والتلقي في النقد المغاربي المعاصر؟

وقد حاولت الإجابة عن هذه الإشكالية، وإماطة اللثام عن جانب من جوانبها، من خلال البحث في كتابات المغاربة في هذا المجال، قصد توثيق حدود بعض الضبط للمفاهيم والخلفيات لهذا التوجه النقدي في النظرية.

ومن منطلق هذا ارتأيت أن يكون منهج البحث وصفيا تحليليا لملاءمته موضوع البحث.

2_ إشكالية الضبط المصطلحي والمعرفي لنظرية الحجاج في الفكر النقدي المغاربي المعاصر.

2-1- إشكالية الضبط المصطلحي لنظرية الحجاج:

عرف النقد المغاربي المعاصر تماشيا مع ظهور نظرية الحجاج ميلاد مصطلحات نقدية من خلال مؤلفات الترجمة من جهة، ومؤلفات التأصيل للنظرية من جهة أخرى، والمتتبع لحركة الترجمة المصطلحية لنظرية الحجاج، يرى بوضوح أنّ الاستراتيجية المتبناة لمقاربة مصطلحات الحجاج قد اعتراها شيء من الاختلاف من حيث المنطلقات والمخرجات، سبب هذا الاختلاف هو الخلفية الابستيمولوجيا للمترجم الناقد؛ لغوية كانت أو بلاغية أو فلسفية، وأيضا من حيث المنهجية المتبعة في تبني هذه النظرية، فمنهم من اعتمد على التراث العربي في استعارة المصطلحات من المنظومة التراثية البلاغية والنحوية والأصولية، منطلقا من النسخ الإنجليزية الأصلية، ومنهم من انطلق من النسخ الفرنسية، مبتعدا عن استلهام المصطلحات من التراث، لكن الملاحظ في هذا البعث المصطلحي الحجاجي أن نسبة غالبة منه لا تتوافق مع خصوصية المعايير الثقافية العربية الخالصة، ودون الانطلاق من تلك المنهجية المحكومة بالصيغ والآليات المنبثقة عن الحسّ الجمالي الفنّي الذي عرفه النقاد العرب القدامى.

لقد حاول النقاد المغاربة المعاصرون اصطناع مجموعة من المصطلحات، ورصد جملة من المفردات النقدية، هي مقاربة مفاهيم، واستنطاق معرفة لفكر ترجمي منبثق – في عمومه - من مرجعية غربية خالصة.

قبل هذا لا بد أن ننوه على أنّ التأصيل المصطلحي له تأثير في عملية الفهم والتلقي، وهذا ما جعله ينال الأهمية القصوى في المنظومة المعرفية القديمة والمعاصرة، فلا تتحدد المفاهيم الابستيمية إلاّ باستقرار دلالات مصطلحاتها، عن طريق الترجمة الدقيقة، على اعتبار أنّه إن لم تتم عملية الترجمة المصطلحية للمقاربة المعرفية، فقدت هذه المعرفة مسوغها، وتعطّلت وظيفتها، ويعدّ ابن حزم (ت:456هـ) من النقاد العرب الذين أكدّوا على أهمية التأصيل للمفاهيم في الفعل المعرفي، يقول: " لابدّ لأهل كل علم وأهل كلّ صناعة من ألفاظ يختصون بها للتعبير عن مرادهم وليختصروا بها معاني كثيرة".[1]

وورد عن القلقشندي (ت:821هـ) قوله في هذا الشأن: " على أنّ معرفة المصطلح هي اللازم المحتّم والمهم المقدم، لعموم الحاجة إليه واقتصار القاصر عليه".[2] ونوّه التهاوني (ت:1158هـ) لأهمية الاصطلاح فقال: "فإنّ لكلّ علم اصطلاحا به إذا لم يعلم بذلك لا يتيسّر للشارع فيه إلى الاهتداء سبيلا، ولا إلى فهمه دليلا".[3]

بداية كما هو معلوم فمفهوم المصطلح كما ورد عند الشريف الجرجاني هو: " اتفاق قوم على تسمية شيء باسم بعد نقله عن موضعه الأول لمناسبة بينهما أو مشابهتهما في وصف أو غيرها"[4]، بمعنى نقل معنى الاسم في أصله المعجمي إلى معنى الذي تواضع عليه أهل الاختصاص لهذا الفنّ بذاته، كقولك في المجاز الذي هو التجاوز في معناه اللغوي، إلى معنى

---

[1]- الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، منشورات الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1982، ص13

[2]. أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م، ص:28.

[3]. محمد علي التهاوني، كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1996م، ج1، ص:28.

[4]- الشريف الجرجاني، التعريفات، تح : إبراهيم البياري، دار الكتاب العربي، بيروت،ط4، 1948،ص 4

الظاهرة الفنية (البلاغية) المرتبطة بعلم البيان، والتي تسمّى المجاز، لتلك العلاقة التي تربط بينهما من حيث الوصف، وفي مفهوم آخر يعرّف على أنّه: " مفهوم مفرد أو عبارة مركّبة استقرّ معناها أو بالأحرى استخدامها وحدّد في وضوح، هو تعبير خاص ضيق في دلالته المتخصصة، وواضح إلى أقصى درجة ممكنة، وله ما يقابله في اللغات الأخرى ويرد دائما في سياق النظام الخاص بالمصطلحات فرع محدد فيتحقق بذلك وضوحه الضروري".[1]

وعليه يمكن القول أنّ كلمة مصطلح في مجال الاصطلاح، تعني اتفاق جماعة لغوية مخصوصة من أهل الفن، على وضع اللفظ المناسب لمعنى الظاهرة الفنية المعيّنة، سواء كانت هذه الظاهرة نقدية أو أدبية، على اعتبار أنّ كل علم يختص بمصطلحاته الخاصة .

2-1-1**مفهوم مصطلح الحجاج**:

انطلق النقاد المعاصرون المغاربة في تعريفهم للحجاج من التراث اللغوي للمعاجم العربية، مستلهمين معنى هذا الأخير من الجذر اللغوي حجة، وربما يرجع ذلك لعدم ورود مصطلح الحجاج بهذه الصيغة التي على وزن فِعَال [حِجَاج]في المنظومة اللغوية التراثية ولا في القرآن الكريم بهذا المعنى المتداول، وإلاّ فقد وردت في لسان العرب، "حِجَاجُ الشمس: حاجبها"[2].

لكن ما استقرّ عليه مفهوم الحجة في المعاجم العربية ما ورد:" حَجَجْتُه أحَاجُّه حِجَاجاً ومُحاجَّة حتى حَجَجْتُه أي غلبته بالحُجَجِ التي أدليت بها، والمَحَجَّةُ: الطريق. ومَحَجَّةُ الطريق سننه. أي الدرع الواقي. الحُجَّةُ: الدليل والبرهان، وقيل الحُجَّةُ ما دفع به الخصم، والتَّحَاجُ: التخاصم، وحَاجَّهُ: نازعه الحُجَّةَ، وحَجَّهُ: غلبه في حُجَّتِهِ".[3]

وبالعودة إلى ما يقابلها في الفرنسية، نجد لفظة(argumentation) ، وهي تدل على الكثير من المعاني منها:

:1. فن استعمال الحجج.Argumentation: action art argument .

2. الدليلArgument: preuve ..

---

[1]- محمود فهمي حجازي، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، دار غريب للطباعة والنشر، مصر، د.ت، ص12.

[2]- ابن منظور لسان العرب، ج3، ص:59-63.

[3]- المرجع نفسه، ج3، ص:59-63.

3. تقديم مجموعة حجج أثناء الخطاب. Argumenter : présenter une série d'arguments discutés.

أما في الإنجليزية فلفظ (argue) يعني أن هناك اختلاف بين طرفين، ومحاولة كل منهما إقناع الآخر بوجهة نظره، وذلك بتقديم الأسباب، والعلل raisons التي تكون حجة argument مدعمة أو داحضة لفكرة، أو رأي، أو سلوك ما .

وعليه فلفظ الحجاج من خلال ما قدمناه من دلالات لغوية في القواميس الغربية، هي نفسها الدلالات التي انبنى عليها الجانب الاصطلاحي لمصطلحي الحجاج في المنظومة المعرفية الغربية، وهذا الذي قد اعتمده النقاد المغاربة المعاصرون في تعريفهم الحجة .

أما في الاصطلاح فلايكاد المتتبع لمصطلح الحجاج في الفكر النقدي المغاربي المعاصر أن يقف عند مفهوم مستقلّ من حيث التصوّر لهذا المصطلح، فكلّ المفاهيم المقدّمة نجدها مستلّة من التصوّر الغربي المعاصر لنظرية الحجاج، مثل ما قدّمه بيرلمان chaim* perlman، وديكروO. ducrot ، ورولان بارت- و ميشال مايير michel meyer وغيرهم، ممن كان لهم سبق التأصيل لمصطلحات هذه النظرية المعاصرة، فصاحب النظريـة الحجاجيـة بيرلمان -chaim perlman-وزميلته تيتيكاه-tytica– يعرفان موضوع الحجاج بأنّه " دراسة التقنيات الخطابية التي تسمح بإثارة الأذهان، أو زيادة تعلقها بالأطروحات التي تعرض من أجل أن تقبلها".[1] ومؤدى هذا التعريف أن الحجاج يكون أقرب للخطابة منه إلى المنطق، أميل إلى النسبية والاحتمال أكثر منه للحقيقة، فقد سار بيرلمان على خطى أرسطو في دمج البلاغة بالجدل، أي دمج بين المغالطة والمناورة والتلاعب بعواطف الجمهور عن طريق فنّ الكلام، وصرامة الاستدلال المنطقي .

أما أوزفالد ديكرو -O. ducrot– فيرى الحجاج على أنّه نظرية لسانية، يتم باللغة مشكلا أقولا متتابعة ومترابطة بشكل دقيق، فالمتكلم يجعل من قول ما حجة القول الآخر يهدف

*(1912م-1984م) قانوني، أستاذ بجامعة بروكسل (بلجيكا)، مؤسس ما يعرف بالبلاغة الجديدة. من مؤلفاته: البلاغة والفلسفة(1952م)، حقل الحجاج(1969م)، الإمبراطورية البلاغية(1977م).

[1]- فيليب بروتون وجيل قوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي جامعة الملك عبد العزيز، السعودية، ط1، 2011م، ص: 42.

من ورائه إقناع المرسل إليه بشكل صريح أو بشكل ضمني.[1] كما عُرف الحجاج عند ميشال مايير -michel meyer -على أنّه: " البحث في العلاقة القائمة بين ظاهـــــر الكلام وضمنيه ؛ أي أنه يقوم على الربـــط بين الكلام الصريح الذي هو عبارة عن حجة مصرّح بها، والكلام الضمني الذي هو عبارة عن سؤال يستنتجه المتلقي في ضوء ما يمليه المقام". [2] واللافت للنّظر في هذين التعريفين أنّ القيمة الحجاجية لقول ما مرتبطة بالنتيجة التي يمكن أن يؤدي إليها، عن طريق بنية الأقوال اللغوية المنتظمة داخل النسق البنيوي، واشتغالها داخله، لا بالمعلومات التي يتضمّنها النظر العقلي.

وهذا نفسه ما رأيناه من مفاهيم عند العرب المعاصرين، فأبو بكر العزاوي يرى الحجاج من خلال زاوية لغوية تتوافق مع خلفيته المعرفية، على اعتبار أنّه يدرج ضمن اللغويين المتخصصين، وعليه فمفهومه للحجاج جاء متابعة لديكرو الذي أسس نظرية الحجاج وفق زاوية لغوية لسانية، يرى أبو بكر العزاوي الحجاج أنّه مؤسّس على بنية الأقوال اللغوية وتسلسلها واشتغالها داخل الخطاب، فالحجة في تصوره عنصر دلالي يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر، والحجة قد ترد في هذا الإطار على شكل قول أو فقرة أو نص، وقد تكون الحجة ظاهرة أو مضمرة بحسب السياق "[3].

أما محمد العمري فينظر إلى الحجاج متأثرا بما ذهب إليه بيرلمان، وهو ما يتوافق مع خلفيته البلاغية، وهذا ما نستشفّه من خلال ما قدّمه في كتابه (في بلاغة الخطاب الإقناعي)، حيث اقترح خطاطات ونماذج عملية لتحليل الخطبة تحليلا حجاجيا، وفق الطرح البلاغي حسب ما ذكره صابر حباشة،[4] وأيضا من خلال تعريفه للحجاج الذي استلّه من المفاهيم التي

---

[1]- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم (من الجاهلية إلى القرن الثاني هجري، بنيته وأساليبه)، عالم الكتب الحديثة، إربد-الأردن، ط1، 2008م، ص:231.

[2]- ينظر، عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم (من خلال أهم خصائصها الأسلوبية)، دار الفارابي-بيروت-ط2، 2007م، ص: 37.

[3].ينظر، أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، درب سيدنا، الدار البيضاء، ط1، 2006م، ص: 17،18.

[4]- ينظر، صابر الحباشة، محاولات في تحليل الخطاب، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 2009م، ص:118.

قدّمها بيرلمان، يقول: "بدأ الحنين من جديد إلى (ريطورية) أرسطو التي تتوسل إلى الإقناع في كل حالة على حدة بوسائل متنوعة حسب الأحوال "[1].

وإذا عدنا إلى طه عبد الرحمن فالحجاج عنده: "فعالية تداولية جدلية فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية".[2] وهو مفهوم ينبني على خلفية فلسفية كون طه عبد الرحمن أستاذا للمنطق وفلسفة اللغة من جهة، ولاتكائه على أصول تعتمد الفلسفة والمنطق الذي تنبني أسسه على الفكر العربي القديم، والغربي القديم والحديث من جهة أخرى، وهذا ما سنراه في الحجاج الفلسفي لاحقا.

بالنسبة لعبد الله صولة فقد جاء مفهوم مصطلح الحجاج عنده متابعة لما جاء به بيرلمان الذي يرى انه مزاوجة بين صرامة الاستدلال واعتباطية الأحكام أي الجمع بين الجدل والخطابة لحصول التسليم برأي الآخر.[3]ثم يستدرك على هذا المفهوم ليؤكد على أن لفظ الحجاج يطلق على العلم وموضوعه أي النظرية وعلى المحاجة.[4]

وفي تصور محمد الولي فالحجاج: " هو توجيه خطاب إلى متلق ما من أجل تعديل رأيه أو سلوكه أو هما معا، وهو لا يقوم إلاّ بالكلام المتألف من معجم اللغة الطبيعية".[5]

أمّا محمد طروس فتصوره للحجاج قد جمع فيه كلّ الأطروحات التي قدّمها النقاد الغربيين للحجاج، وهذا في كتابه (النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية) فقد عرض كلّ المفاهيم الحجاجية ليصل بنا إلى مفهوم هو: "كون الحجاج ممارسة عقلية أو تقنية للتأثير أو للبحث عن الحقيقة أو الفعالية بمعزل عن طبيعتها

---

[1]- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي (مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية)، إفريقيا الشرق، بيروت-لبنان، ط2، 2002م، ص:10.

[2]- المصدر نفسه، ص:65.

[3]- ينظر الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة عبد الله صولة ص298.

[4]- ينظر المرجع نفسه ص299.

[5]. محمد الولي، مدخل إلى الحجاج (أفلاطون وأرسطو وشاييم بيرلمان)، مجلة عالم الفكر، ع2ن مج40، ديسمبر2011، ص11.

الخطابية".[1] ويفهم من التعريف الذي قدّمه طروس أنّ الحجاج يقوم على مبدأ التأثير على المتلقي، دون النظر في طرق الاحتجاج، وأنواع الحجة.

ويرى محمد الأمين الطلبة أنّ الحجاج "هو النسق القولي الذي ينوب عن القوة المادية في تحقيق النتائج الملموسة...إنه الحركة التي تسعى من خلالها دائما إلى تغيير أحوال الأمور التي كانت قائمة". [2] فلم يحصر صاحب المفهوم الحجاج في طريقة من الطرق، بل ركّز على الوظيفة التي تؤديها الحجة بغض النظر عنها، كانت لسانية أو بلاغية أو منطقية، وهو المذهب نفسه الذي تبناه محمد طروس.

أمّا بالنسبة للمترجمين المغاربة فعبد الله قينيني قد قدّم لنا ترجمة لكتاب (how to do thing with words)كيف ننجز الأشياء بالكلام، ثم أضاف إلى العنوان، نظرية أفعال الكلام العامة.وقد انطلق هذا الأخير من النسخة الإنجليزية الأصيلة، معتمدا على التراث العربي لاستعارة المصطلحات كما ذكر في مقدمته،[3] فجاء مفهوم الحجاج عنده وفق الطرح اللساني المعاصر الذي قدّمه ديكرو، ضمن نظرية أفعال الكلام التي ترى اللغة وسيلة للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلّية.[4]

وعند محمد يحياتن فقد جاء مفهوم الحجاج وفق المنهج اللساني الذي رأيناه مع عبد الله قينيني، الذي يرى في منطق اللغة فعل التأثير والحجاج في كتاب أوستن (how to do thing with words)وإن كان قد خالف في الكثير من المصطلحات التي قدمها عبد الله قينيني بداية من ترجمة عنوان الكتاب الذي جاء وفق الترجمة المعنونة ب:(القول من حيث هو فعل – نظرية أفعال الكلام).

---

[1]- محمد طروس، النظرية الحجاجية (من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، دار البيضاء-المغرب، ط1، 2005م، ص:12.

[2]- سالم محمد الأمين الطلبة، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة الفكر، ع1، مج:34، 2005م، ص:82.

[3]. ينظر، أوستن، كيف ننجز الأشياء بالكلام (نظرية أفعال الكلام العامة)، تر: عبد الله قينيني، افريقيا الشرق، 1991ن ص5.

[4].ينظر، المرجع نفسه، ص:6.

وإذا نظرنا فيما قدمه علي الشبعان في كتابه (الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل) نجد أنّ تصوره لمصطلح الحجاج على أنّه مقاربة تداولية جدلية في إطار بنية مقولية مركبة تنتج عنها جملة من الأفعال اللغوية المركبة.[1]

ولا ننسى الباحث شكري مبخوت الذي جاء مفهومه للحجاج متابعة للتوجه اللساني، فهو يرى الحجاج: " بيان ما يتضمنه من قوّة حجاجية تمثل مكونا أساسا لا ينفصل عن معناه يجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها يوجه قوله وجهة حجاجية ما. [2]

ويمكن تفسير نزوع النقاد المغاربة المعاصرون إلى هذا التنويع من المفاهيم المقدّمة لمصطلح الحجاج؛ والذي عرف اختلافا جوهريا من حيث المنطلقات والمخرجات على الخلفية الابستيمولوجيا لكلّ ناقد، لسانية أو بلاغية أو فلسفية منطقية من جهة، وأيضا إلى مرجعية الترجمة التي انطلق منها المترجم سواء النسخ الإنجليزية الأصلية أو فرنسية من جهة أخرى، وعليه فالملاحِظ لهذه التعاريف لمصطلح الحجاج عند النقاد المغاربة المعاصرين يرى بوضوح قرب الصلة بينها وبين مفهوم الحجاج عند النقاد الغربيين، فدمجوا الجدل مع البلاغة في تصوّرهم لمفهوم الحجاج، وهذا اتباعا لما وضع أسسه بيرلمان في إطار ما يسمّى بالبلاغة الجديدة، أو المفهوم الذي يرى في الحجاج نظرية لسانية تقوم على مبدأ اللغة الطبيعية كما هو عند ديكرو وجاك موشلار ووانسكومبر وجاكوبس وبلير وغيرهم، أو المفهوم الذي يفسر الحجاج من منطلق فلسفي قائم على الاستدلال الذي يدعم الإثبات، ويحترم معايير الحكم كما هو عند تولمان وكريز وفينو، وهذا لا ينفي أنّ مفهوم الحجاج في الفكرين المغاربي المعاصر والغربي قد اختلفا في بعض حيثيات الطرح بخصوص التأصيل المصطلحي.

[1]- ينظر ، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، علي الشبعان، ص75.

[2]- شكري مبخوت، نظرية الحجاج في اللغة (ضمن مؤلف نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو الى اليوم) ، ص352.

2-1-2 مفهوم مصطلح الإقناع:

ورد مصطلح الإقناع في كتابات بعض النّقاد المعاصرين ليشكّل لنا مفهوما مؤسَّسا كمثله من القضايا النقدية المعاصرة، فأخذ مفهوم الإقناع بعدين اثنين؛ بعد يقوم على معنى الاحتمالية القائمة على الظنّ، والآخر بمعنى الأثر الذي يحدثه الخطاب الحجاجي في نفسية المتلقي، مع التأكيد على أنّ هذه المفاهيم هي سليلة الفكر الغربي القديم والمعاصر، فعبد الله صولة يرى في مصطلح الإقناع معنى الاحتمالية القائمة على الظنّ متابعة للطرح الذي قدّمه بيرلمان، يقول: " ما فهمناه من كلام المؤلّفين في كتاب مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة أنّ تحقيق الاقتناع (convection) الذي هو غاية الحجاج يقع في منطقة وسطى بين الاستدلال والإقناع(la persuasion) "[1]، أي بين صرامة الاستدلال القائم على العقل، والذي لا يثير تأويل مسائلها مشاكل خلافية، وبين النسبية والاحتمالية (لامعقولية) التي يثير تأويلها مشاكل خلافية. وإن كان لهذا المفهوم تأصيل في الفكر العربي القديم، فمثلا عند الفارابي(ت:339ه) وردت القناعة بمعنى: " ظنّ ما؛ والظنّ في الجملة أن يعتقد في الشيء أنه كذا أو ليس كذا".[2] وعليه فالإقناع يقوم على مبدأ الظنّيات، فاعتقادك الشيء كذا هو ظنّ، وقد لا يكون كما تتصوّره في نفسك، وأمّا ابن حزم (ت:456ه) يرى أن الإقناع " قضية أو قضايا أنست النفس بحكم شيء ما دون أن توقفها على تحقيق حجة ولم يقم عندها برهان بإبطاله"[3]؛ بمعنى أنّ الإقناع ما يقوم على مخاطبة الخيال والعاطفة من دون إعمال للمنطق أي الظن المنافي لليقين. والإقناع عنده بمعنى – أيضا- سلطة مستقرة ومشهورة سلفا خارج نطاق الخطاب نفسه وهو ظنّ، يقول: " وذلك أنهم لا يلتفتون إلى البرهان وإن أقروا أنه برهان وقد ألفوا الإقناع والشغب إلفا شديدا، وهم ينقدون إذا عورضوا به، فهؤلاء إن عارضتهم ببرهان لم ينجع فيهم، وإن عارضتهم بإقناع ذلوا ذلة اليتيم... حتى إذا

---

[1]- في نظرية الحجاج، عبد الله صولة، ص:206.

[2]- هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو (ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، إشراف: حمّادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، جامعة منوبة – تونس، (د ط)، (د تا)، ص:142.

[3]- ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، الإحكام في أصول الأحكام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، إشراف: مبحث البحوث والدراسات في دار الفكر، بيروت -لبنان، (د ط)، 2007مج1، ص:35.

قلت لهم فلان يقول القول هذا القول وذكرت لهم رجلا من عرض الناس موسوما بخير انقادوا له وتوقفوا جدا وسهل جانبهم".[1]، وعند حازم القرطاجني (ت:684ه) في معرض حديثه عن صناعتي الشّعر والخطابة على أنّهما: "مشتركان في مادّة المعاني، ومفترقان في تصوّر التخييل والإقناع"،[2] فربط الشعر بالتخييل مع وجود الإقناع، والخطابة بالإقناع مع عدم نفي التّخييل، معتبرا الإقناع من الظنّيات، ولا يبتعد ما قدّمه السجلماسي (ت:704ه) عمّا ذكره سابقوه في معنى الإقناع الذي يعني عنده الظنّ المنافي لليقين، وأنّه مخاطبة للعاطفة والخيال، من خلال حديثه الضمني عن القضيـّة الشّعريـة واختلافها عن القضيـّة الجدليـة أو الخطبيـّة على أنّ الثانية تكون " من حيث الشهرة والإقناع فقط دون النّظر إلى غير ذلك من صدق وعدمه".[3]

أمّا مفهوم الإقناع كونه الأثر الذي يحدثه الخطاب الحجاجي في نفسية المتلقي، فنجد الكثير من المشتغلين في الحقل الحجاجي يرون بذلك، متتبعين خطى الطرح الغربي، كأمثال ويليام بليك الذي يرى أنّ : الإقناع هو العناية بالتفاعل مع الآخرين من موقع قوّة وتأثير.[4] والمفهوم نفسه ما ذهب إليه ديك لافاني، على أنّ مفهوم الإقناع هو القدرة على جعل الآخرين يتفقون معك، إما بالاتفاق مع آرائهم أو عمل ما يريدونه منهم أن يفعلوه.[5]

---

[1]- ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، رسائل ابن حزم الأندلسي (التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية)، تح: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1983م، ج4، ص:289،290.

[2]- القرطاجني أبو الحسن حازم ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار العرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط3، 1986م، ص:19.

[3]- السجلماسي أبو محمد القاسم ، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط .المغرب، ط1، 1980م، ص:220.

[4].ينظر: ديف لاكاني، الإقناع فن الفوز بما تريد، تر: زينب عاطف، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، ط1، 2016م، ص:30.

[5].ينظر، الإقناع فن إقناع الآخرين، جيمس بورج، مكتبة جرير، السعودية، ط1، 2009م، ص:15.

فالباحث طه عبد الرحمن يعتبر مصطلح الإقناع " التأثير في اعتقاد المخاطب، وتغيير سلوكه".[1]ولا يبتعد عبد اللطيف عادل عمّا قدمناه، إذ يعتبر الإقناع ما يتوخى صاحبه الانتصار في خضم صراع حياتي ومنازعات بشرية، مستعملا طرق وتقنيات تؤدي إلى الاستلذاذ لدى المقول إليه واستمالته .[2]والمتتبع لمؤلفات النقاد المغاربة المعاصرين كأبي بكر العزاوي ومحمد العمري ومحمد طروس وصابر حباشة وغيرهم، لا يخرج مفهوم مصطلح الإقناع عن هذا المعنى الذي ذكرناه، وهو إحداث التأثير ، وتغيير السلوك أو تحصيل موافقة، أو من أجل الحوار والتواصل، وهذا على حسب الخلفية المعرفية التي يتبناها كلّ ناقد ؛ بلاغية أو لسانية أو فلسفية منطقية.

من كلّ هذا ندرك أنّ النقاد المغاربة المعاصرين استعملوا مصطلحي (الحجاج) و (الإقناع)بالمعنى الذي هو سليل الفكر الغربي المنبثق عن الخلفية الفلسفية الأصيلة، وإن كان له جذور في الفكر العربي القديم– كما أسلفنا الذكر- ، ومع هذا فنجد بعض الاستحداث النسبي في الطرح المغاربي المعاصر من حيث المفهوم المصطلحي، ففي مصطلح الحجاج الاتفاق حاصل في كونه حيز خطابي يدور حول قضية متنازع فيها، أو مشكوك في صحّتها، وعلى الطرفين إثبات ذلك أو العزوف عنه، وفي مصطلح الإقناع الاتفاق حاصل كونه يأتي بمعنى الاحتمالية، وبمعنى الوقع الذي تحدثه الحجة على اختلاف طرق استخدامها.

2- 2- **إشكالية الضبط المعرفي لنظرية الحجاج:**

مع ظهور التصور الجديد لسياسة القول وأساليب الخطابة(الحجاج) من طرف النقاد الغربيين المعاصرين، والتي تعتبر امتدادا للفكر اليوناني، وبالخصوص الطرح الأرسطي، انقسم النقاد والمفكرون المغاربة المعاصرون إلى توجهات ثلاث:

أ-رافض لهذا الفكر المستورد من الغرب، وحجتهم في ذلك أن التراث اللغوي والبلاغي العربي لا يتناسب والطرح الغربي لتباين المادتين، واختلاف الأرضيتين التي نشأت فيهما.

[1]- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2000، ص38.

[2].ينظر، عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2013م، ص:28-30.

ب-متأثر إلى درجة الانصهار بالكلية حيث أصبح لا يرى إلاّ بأعين ما أنتجه الغرب من تصورات ونظريات، ولم يكتف بذلك بل وصل به الحال إلى التنكر عن تراثه، والطعن فيه.

ج- فريق ثالث زاوج بين التراث العربي القديم والغربي الحديث، وراح يستثمر في نظرية الحجاج لمعالجة النصوص، والكشف عن جذور هذا العلم الجديد، ومدى تثاقف التراثين العربي والغربي.

مع الفريقين الأخيرين، اختلفت مسارات تبني النظرية الحجاجية، وهذا لالتباس مفهوم الحجاج على حسب الخلفية الابستيمولوجية للناقد المغاربي المعاصر، البلاغية منها أو اللسانية أو الفلسفية المنطقية، وأيضا سيرا على خطى اختلاف وجهات نظر النقاد الغرب، إضافة لصعوبة الإلمام بهذا المبحث النقدي الجديد، وهذا ما وقفنا عليه من خلال تصريحاتهم في مقدمة كتبهم، ومن ذلك تمثيلا لا حصرا ما ذكرته سامية الدريدي، تقول " لا نشك البتة ونحن نحاول تقديم نظرية الحجاج في صعوبة الإلمام بهذا المبحث إلماما تاما كاملا إن لم نقل استحالة تحقيق ذلك على الوجه الأكمل الذي يقتضيه بحثنا، وذلك لسبب رئيسي هو استمرار هذه النظرية في التأسيس والتشكل إلى تاريخ إنجاز هذا البحث"،[1]وكذلك الشأن مع محمد طروس، يقول: " حين نقارب مفهوم الحجاج لأول وهلة، يتضح أنه مفهوم عائم، يصعب حصره وتحديده داخل ركام هائل من الكتابات والمرجعيات النظرية"[2]،وما تقرر ذكره هو نفسه ما نوّه عليه الكثير من النقاد الذين سخروا أقلامهم للتنظير لهذه المقاربة النقدية الجديدة.

ومن خلال التتبع نجد أن الحجاج عرف ثلاثة مسارات، فلسفي، ولساني، وبلاغي، وقد تبنّى هذه المسارات بعض الباحثين المغاربة المعاصرين، محاولين الغوص في المؤلفات الحجاجية الغربية ليستخلصوا أهم ما جاء فيها، منتهين إلى دور الحجاج في تجاوز مفاهيم البنيوية التي كانت سائدة آنذاك، وأيضا باعتبار الحجاج منهجا يسبر أغوار النص ويبين عن قدرته في الإقناع، وهو بلا شك مشروع ضخم، يعيد بعث النصوص

[1]- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2، 2011م، ص15.
[2]- محمد طروس، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص6.

بلباس جديد يأخذ طابع العقلانية الذي افتقد على حسب رأيهم في المناهج النقدية التي سبقت.

لقد نضجت نظرية الحجاج داخل النسق المعرفي المغاربي المعاصر بشكل نقدي لا يستهان به، فقد حاول اغلب المنظرين المغاربة تطوير أبحاثهم في الحجاج باستقصاء كتابات النقاد الغربيين، وبالترجمة لمؤلفاتهم مستلهمين التأصيل من التراث العربي القديم.

_ المخطط توضيحي.

2-2-1- الحجاج اللساني:

ارتبط هذا التوجه مع الباحث المغربي أبي بكر العزاوي، الذي تبنى مذهب الحجاج اللساني من خلال أعماله المطروحة بتنوعها، وخاصة في كتابه (اللغة والحجاج)، حيث يرى أن نظرية الحجاج ليست مقرونة بالبدايات الكلاسيكية للبلاغة الأرسطية – أي خلاف ما ذهب إليه محمد العمري و حمادي صمّود ومحمد طروس – بل ما قام به مجموعة من أقطاب مدرسة أكسفورد، كـ "أوستين" و "سيرل"، وتلميذهم ديكرو الذي طور من أفكارهما حول الطرح المرتبط بأفعال الكلام –أفعال اللغوية-، وقد اعتبر أن المراد من مفهوم الحجاج هو ما أُسّس على بنية الأقوال اللغوية، وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب.[1]ويتابعه في ذلك جمع من النقاد المغاربة، كشكري مبخوت الذي يعرف الحجاج على أنه :" بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية تمثّل مكونا

[1]- ينظر، أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط1، 2006م، ص:14.

أساسيا لا ينفصل عن معناه يجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها، يوجّه قوله وجهة حجاجية ما". [1]

على عكس ما قدمه طه عبد الرحمن في مفهومه للحجاج على أنه: "فعالية تداولية جدلية فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية".[2]وهو مفهوم ينبني على خلفية فلسفية كون طه عبد الرحمن أستاذا للمنطق وفلسفة اللغة من جهة، ولاتكائه على أصول تعتمد الفلسفة والمنطق كالمؤلفات العربية القديمة، والغربية القديمة والحديثة من جهة أخرى، وهذا ما سنراه في الحجاج الفلسفي، وخلاف ما ذكره عبد الله صولة، باعتباره مزاوجة بين صرامة الاستدلال واعتباطية الأحكام أي الجمع بين الجدل والخطابة، وهذا لحصول التسليم بالرأي الآخر.[3] ويمثل هذا المفهوم للحجاج المرجعية البلاغية التي يتبناها صولة، ومحمد علي القريصي، وعلي الشبعان، وغيرهم.

إن مفهوم الحجاج عند العزاوي ومن تبعه من المنظرين المغاربة كشكري مبخوت والدريدي وعز الدين الناجح وصابر حباشة جاء موافقة لما قدمه (ديكرو وأنسكومبر وجاك موشلر وفان إيمرين وجاكوبس وجاكسون وبلير)، وهو تصور يرى أنّ الحجاج نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية[4]، متفقين على عدم فصل وظيفة الخطاب عن الوظيفة التأثيرية الإقناعية

[1]- شكري مبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن مؤلف (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص:352.

[2]- المصدر نفسه، ص:65.

[3]- ينظر، عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج –الخطابة الجديدة ، بيرلمان وتيتيكاه، ص:218.

[4]_ ينظر، أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص:14.

ولا يتم هذا التأثير بالإقناع إلا عبر العوامل الحجاجية التي تعتبر في مضمون كلامهم في مؤلفاتهم عماد عملية التواصل.[1]

كما يرى الشهري في كتابه (استراتيجيات الخطاب) أن العزاوي لم تقتصر أعماله على معالجة الخطاب النثري، بل تجاوزته إلى تحليل الخطاب الشعري، وقسمه من وجهة النظر الحجاجية إلى شعر حجاجي، وغير حجاجي، مستمدا الدعم فيما يذهب إليه من حازم القرطاجني الذي يرى أن الشعر قد يستعمل للإقناع.[2] وهذا يدفعنا إلى القول، إن للعزاوي اجتهادات بحثية مضافة مستلهمة من النحو العربي القديم من خلال الأمثلة النثرية والشعرية، وهي اجتهادات حاول من خلالها التأسيس لنموذج حجاجي لغوي من صميم اللغة العربية.

ثم راح أصحاب هذا التوجه يقدمون بعض القضايا المرتبطة بالحجاج، كالسلم الحجاجي والروابط والعوامل الحجاجية، المبادئ الحجاجية، الاستعارة والإبطال، وغيرها من القضايا المتعلقة بالحجاج اللغوي، مستلهمين هذا مما قدمه (ديكرو) وانسكومبر.

2- 2- 2- الحجاج الفلسفي:

ارتبطت بداياتها مع الأستاذ طه عبد الرّحمن كونه أستاذ المنطق وفلسفة اللغة من جهة، ولاتكائه على أصول تعتمد الفلسفة و المنطق كالمؤلفات العربية القديمة، والغربية القديمة و الحديثة من جهة أخرى، وقد امتازت هاته النظرة للحجاج بالطابع الفلسفي البحت، إذ أنّ اللغة في نظر طه عبد الرحمن في الأحوال كلها تنتج حجاجا، وهذا في إطار الفلسفة، ولأن هذا النوع من الخطابات لابد أن يكون فلسفي اقبل كل شيء مادام يتعلق بالكلام والخطاب عموما، يضع طه عبدالرحمن نظرية للحجاج انطلاقا من كونه صفة

[1]- عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011م، ص17.

[2]-ينظر، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت-لبنان، ط1، 2004م، ص:452.

للخطابة في كتابه اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي، يقول: "إن الأصل في تكوثر الخطابة هو صفته الحجاجيةّ، بناء على أنه لا خطاب دون حجاج ".[1] ثم راح يعرف الحجاج على أنه: "فعالية تداولية جدلية فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية".[2]

أما المعالم الكبرى لهذا المشروع فتتمثل في:

أ- مقومات منهج النظر إلى التراث العقائدي.

بـ- أسس الحوار مع الآخر.

جـ- إسناد السلطة للنص من خلال تفاعل مضامينه .

د- وصل الفكر بمحيطه التداولي.

هـ- وصل الفكر بالمجتمع.

و- مقومات منهج النظر في المقام.[3]

ومن الباحثين أيضا حبيب أعراب، حيث يتناول هذا النوع من الحجاج فيما يسميه بحجاج الفلسفة، وقد ذهب مذهب استبعاد وخُلُو كل تحليل فلسفي من الحجاج، كما يرى أنّ مقياس صلاحية الحجاج الفلسفي لا يكون إلاّ بمعايير خارجيّة؛ أي قوته وضعفه، كفايته وعدمها، نجاحه أو فشله في الإقناع، وتصبح بذلك غاية الحجاج ليست الصّواب أو الصّحّة، بل التّأثير و الّتقبّل.[4]

---

[1]- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998م،ص:213..

[2]- المصدر نفسه، ص:65.

[3]- ينظر، طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، بيروت، ط2، 2000م، ص:62-65.

[4]- ينظر، حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص:117.

2- 2- 3-الحجاج البلاغي:

لا نخفي أن دراسات النقاد المغاربة المعاصرين المتعلقة بالنظرية الحجاجية البلاغية لم تطالعنا بآراء مختلفة عن آراء الدارسين الغرب، بل نجد أنها لم تتعدّ العرض والتفسير، وإن اختلفت فهي تختلف في التطبيقات التي تتباين بتباين النصوص، خاصة منها :القرآنية، والتراثية. وعليهفإنه لمن الصعب أن نحدد بالضبط أوليات هذا الطرح، لكن ما يمكن رصده من خلال القراءة والتتبع، أن أول من تناول نظرية الحجاج كما يذكر صابر الحباشة هو محمد العمري في كتابه (في بلاغة الخطاب الإقناعي)، حيث اقترح خطاطات ونماذج عملية لتحليل الخطبة تحليلا حجاجيا،[1] ويعتبر العمري من أبرز بلاغيّي المغاربة المعاصرين الذين اهتموا بالظاهرة البلاغية المعاصرة المرتبطة بالحجاج من خلال كثرة التأليف في هذا الميدان من جهة، والترجمة من جهة أخرى.

لقد اعتبر الكثير من النقاد والباحثين أن جهود محمد العمري كانت الرائدة "وذلك لانتباهه المبكر إلى دور الحجاج في قراءة النصوص البلاغية والخطابية، وهو انتباه ولّده اطلاعه المكثف على نصوص التراث العربي والغربي قديمهما وحديثهما".[2]والملاحظ أنه سلك مذهبا في القول بأن البلاغة هي امتداد إلى البلاغة الكلاسيكية الأرسطية عند حديثه عن الدعائم الأرسطية لبلاغة الخطاب، حيث أنه ربط البلاغة بالإقناع متأثرا في ذلك بأفكار أرسطو يقول: "وبدأ الحنين من جديد إلى ريطورية أرسطو التي تتوسل إلى الإقناع في كل حالة على حدة بوسائل متنوعة حسب الأحوال".[3]

إن هذا الأمر هو الدافع إلى الاعتقاد بالقول أنّ البلاغة قد عرفت مفاهيم ورؤى مختلفة بحسب تلك الإبدالات المعرفية الجديدة، والتي تتغير بتغير الثقافات والمتطلبات الجديدة، وهذا يستدعي بالمقابل -حسب رأيه-النظر إلى البلاغة من زاوية الجوهر الكامن

---

[1]- ينظر، صابر الحباشة، محاولات في تحليل الخطاب، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط1، 2009م، ص:118.

[2]- محمد سالم أمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص:243.

[3]- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي (مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية)، دار الثقافة، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 1986م، ص:10.

بين كل التوجهات. إن هذا الطرح هو نفسه الذي تناقله الكثير من النقاد الغربيين كأمثال أوليفي روبول في كتابه (البلاغة la rhétorique)، ومشيل مايير في كتابه (قضايا البلاغة)، وأيضا نفسهما تناوله العرب، كأمثال الجاحظ وابن سنان والسكاكي والجرجاني وغيرهم.[1]

يؤكد هذا الطرح الذي يقدمه العمري على أن البلاغة في منظوره محل استقطاب الكثير من العلوم " ذلك أن لا علم يستطيع أن يستغني عن البلاغة باعتبارها أداة الفهم والإفهام وأداة التأثير والاستمالة".[2] وهو في هذا كله ينحو منحى العصرنة ويريد القول إنه مادامت البلاغة قد عرفت تغيرات جوهرية في المفاهيم قديما وحديثا، عند العرب والغرب، ومادامت تملك خاصية العلم الذي لا يستغنى عنه، فلا ضير إلى إعادة النظر في البلاغة العربية وإلباسها لباسا جديدا يواكب المتطلبات الجديدة، وهو يقصد بذلك البلاغة الجديدة (نظرية الحجاج).

لكن تأثر العمري بالفكر الأرسطي لم يمنعه من التفرقة بين الشعرية اليونانية في مادتها، وبين الشعرية العربية، متأثرا في ذلك إلى ما ذهب إليه حازم القرطاجني في كتابه المنهاج، لكنه اعتبر أن المكون الحجاجي في المعنى مكون أساسي، وأن المكون الإخباري مكون ثانوي، على عكس ما كان شائع بخصوص المعنى في البلاغة الكلاسيكية على حد رأيه، وهذا عنده ما انتهت إليه البلاغة الجديدة.[3] أي عكس المعادلة فبعد أن كان المعنى في البلاغة التقليدية عنصرا إخباريا أساسيا، ثم يأتي المكون الحجاجي رديفا ومقويا ثانويا يدعم تلك الغاية الإخبارية، أصبح المعنى في البلاغة الجديدة عنصرا حجاجيا في الأساس، ثم تأتي الغاية الإخبارية لعنصر المعنى داعما له، وهنا تتضح وجهة العمري الرامية إلى إخراج البلاغة من طابعها الكلاسيكي التعليمي إلى الطابع الحجاجي الإقناعي.

---

[1]- ينظر، محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص:11،12.

[2]- المصدر نفسه، ص:17.

[3]- ينظر،، محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ص:32-34.

كما لا يمكن إخفاء أن محمد العمري قد ركز في قراءته هذه على الأبعاد التداولية في البلاغة العربية القديمة وعلاقتها بمختلف العلوم الأخرى، لكنه قبل وصوله إلى تلك الأبعاد نجده يتتبع مسيرة البلاغة العربية في اهتمامها بالحجاج من جهة، وفي علاقتها بالنصوص الأرسطية من جهة أخرى، لكن ما نلفت الانتباه إليه نزوع معظم الدراسات البلاغية إلى بعث التراث العربي القديم بدءا من الجاحظ، مرورا بعبد القاهر الجرجاني، ووصولا إلى السكاكي والقزويني والسيوطي.

ولمحمد العمري الكثير من المؤلفات في هذا المجال أهمها:(في بلاغة الخطاب الإقناعي)، و(أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة)، و(البلاغة العربية أصولها وامتداداتها)، و(محاولات في تحليل الخطاب)، وكلها تصب في المغزى الأوحد على أن البلاغة هي الفضاء الذي تلتقي فيه العلوم باختلافها وتعددها.

كما لا ننسى بالطبع الباحث صابر الحباشة الذي أدلى بدلوه في هذا الفضاء المعرفي الجديد، وأعطى بعدا آخرا من خلال مساهماته الثرية في تحريك عجلة التأصيل لنظرية الحجاج من خلال تلك الإسقاطات على التراث العربي، وتفطن إلى أنّ " الأساليب البلاغية قد يتم عزلها عن سياقها البلاغي لتؤدي وظيفة إقناعية استدلالية، ومن هنا تبين أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية ولإنجاز مقاصد حجاجية ولإفادة أبعاد تداولية".[1] وهذا القول ينبأ على أنّ البلاغة عند صابر الحباشة تشمل مباحث النقد المعاصر من نظرية التواصل، والنظرية التداولية، ونظرية الحجاج.

أما مرحلة الاهتمام بالحجاج فتظهر جليا من خلال العمل الضخم الذي قام به مجموعة من الباحثين التونسيين على رأسهم الباحث حمّادي صمّود، ضمنوها مؤلفا سموه (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، والذي شمل العديد من النظريات والتصورات وهي الآتي:

[1]-صابر الحباشة، التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق-سوريا، 2008م،ط1، ص:50.

أ-مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح (حمادي صمود).
بـ-الحجاج عند أرسطو (هشام الريفي).
جـ-الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مؤلف -بيرلمان وتيتيكا- (عبد الله صولة).
د-نظرية الحجاج في اللغة من خلال وصف أعمال ديكرو (شكري مبخوت).
هـ-نظرية المساءلة عند ميار(محمد علي القارصي).
و-الأساليب المغالطية في الحجاج (محمد النويري).

لقد كان البحث على شكل تقصّي للبلاغة الحجاجية من منابعها، وينطلق حمادي صمود في هذه المرحلة من اعتبار بلاغة الحجاج أدق مواضيع الدرس البلاغي، إذ أنها تقوم على استعمال جميع العناصر المحاورة المساعدة في فهم الخطاب وتوصيل، كما تحدث عن أقسام الحجج التي يختارها المتكلم، حيث يضع كل واحدة مكانها -المقدمة، الموضوع، الخاتمة-في مكانها المناسب الذي يمنحها الفاعلية.

ثم توالت بعد ذلك الدراسات البلاغية والأسلوبية ليتوجه عدد كبير من الباحثين والطلبة في المغرب العربي، إلى الاهتمام بنظرية الحجاج من خلال الكثير من المؤلفات كـ: (الحوار ومنهجية التفكير النقدي) لحسان الباهي، و(الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، بحث في الأشكال والاستراتيجيات) لعلي الشبعان، و(مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة) لمحمد سالم ولد محمد الأمين، وأيضا (النظرية الحجاجية) لمحمد طروس.

بغض النظر على بعض الأعمال هنا وهناك، والتي حاولت تقصي نظرية الحجاج في التراث العربي والغربي القديم والحديث منها: الرسائل الأكاديمية كرسائل الدكتوراه والماجستير وأيضا المخابر المتخصصة في نشر المقالات والأبحاث على الصعيدين العربي بصفة عامة، والجزائر بصفة خاصة، وعلى سبيل المثال أذكر: مجلة الخطاب بجامعة تيزي وزو، ومجلة فصل الخطاب بجامعة تيارت.

كما نجد أن المحاولات الكثيرة من النقاد والباحثين التي تطمح إلى إعادة قراءة البلاغة الأرسطية تحت عنوان (الخطابة الجديدة)، قد ساهمت أيضا في تطور الدرس الحجاجي

من خلال اهتمامها بالأساليب والآليات الكفيلة بإقناع المخاطبين، ودفعهم إلى تغيير وجهات نظرهم بما يخدم النص.

لم تقتصر الدراسات التي أسلفناها ذكرا على الأبعاد التنظيرية فحسب، بل تعدته إلى الجانب التطبيقي والذي اعتُمِد فيه تحليل النصوص التراثية العربية كدراسة عبد الله صولة للخطاب القرآني والدكتورة سامية الدريدي للشعر العربي القديم، ولكن أيّا من هذه الدراسات لم تول الاهتمام الكافي و الواضح بمباحث البلاغة المعاصرة بشكل عام، والحجاج بشكل خاص.

3- خاتمة:

في ختام هذا البحث المتواضع يمكن القول، إنّ الوقوف على الضبط المصطلحي والمعرفي لنظرية الحجاج في الفكر النقدي المغاربي المعاصر، ليس في متناول كلّ باحث، ولهذا قد يعتري هذا البحث الذي قدمته بعض النقائص وشيء من العوار، لكن من خلاله يمكن استخلاص ما يلي:

_ بقدر ثبات منهجية المصطلح وشيوعه، يحقق العلم أو الحقل المعرفي ثباته منهجيته وشيوعه، وهذا ما تحقق في بعض مصطلحات الحجاج وغاب عن بعضها الآخر.

_ تطور الأبحاث النقدية المرتبطة بنظرية الحجاج، وتعاظم إلى الاهتمام بها، ما جعلها نظرية تأخذ حظها من مساحة الكتابات النقدية المغاربية المعاصرة.

_ الاختلاف الحاصل بين النقاد المغاربة في تصور النظرية الحجاجية جعل منها نظرية يكسوها شيء من عدم الاستقرار والثبات المعرفي والمصطلحي.

_ اختلاف الترجمة التي اعتمد أصحابها النسخ الأصلية (انجليزية – فرنسية) ساهم بشكل كبير في توسيع الهوّة في ضبط المفاهيم المصطلحية والمعرفية.

_ لا تنفي التبعية في تبني النظرية الحجاجية في التصور الغربي بعض الإسهامات التجديدية المبنية على فكر عربي خالص، خاصة ما رأيناه في ذلك الاستلهام من التراث المصطلحي العربي القديم.